A.D
أقسام روحي
رواية
A STORY INSPIRED BY IMAGINATION
عبدالرحمن دبشه

أقسام روحي.

للكاتب:

عبدالرحمن دبشه

للمزيد من الكتب على منصة:

kotobati

Instagram:

@abdalrhman_dabsha

@a__dabsha

Facebook:

Abdalrhman Dabsha

A.D

@janaynalnour

+963 998 571 316

اهداء:

إلى ظلّ الحب الهارب في مخيلتي،
الذي يملأ فكري ولا يعلم. لكَ يا
من تجوب الآفاق بعيدًا، رويدًا
تنسج في فضاء آخر ربما ليس لي
به مكان. قد لا تدرك أنت هويّتك
بين سطوري، ولكن لك في القلب
مقعدًا لا يُشغله سواك، حتى وإن
كانت أفكارك تتسامى في فلك
غيري. هذه الرواية... قلبٌ من حبرٍ
وورق، أهديه إليك.

مقدمة:

فى مقدمة هذه الرواية، نقف على أعتاب الوحدة، ذلك البحر الغامض الذى يجد فيه البعض جزرًا مظلمة ويجد آخرون فى غماره لآلئ. تقول حكمة قديمة: "من أحب الوحدة، سافر دون رفيق، ووصل إلى ذاته قبل المسير." هكذا، نتأمل فى هذه الصفحات خفايا النفس التى تتبدى فى صمت العزلة.

الوحدة، ليست مجرد حالة من الانفراد، بل تعتبر معلمًا صارمًا يعلمنا كيف نكون الصديق والعدو لذاتنا. إنها فى طياتها تحتوى على الضرر والنفع، تمنحنا الوحدة وقتًا للتأمل والتفكر، ففى لحظاتها الهادئة، نتعلم كيف نصغى لدواخلنا بتأنٍ وانتباه، ونتعلم كيف نعترف بالأفراح والأحزان التى نستضيفها دومًا.

الوحدة تشبه النار، إذ تكون خادمًا جيدًا ولكن سيدًا قاسيًا. من جهة، هى الملاذ الذى يقدم السكينة والتفرد بالتجربة الإنسانية الغنية ولحظاتِ التجلى الروحى. ومن جهة أخرى، هى الجحيم الذى يُشعِر بالبرد الذى يتسلل إلى العظام ويزرع بذور اليأس.

فى نفس الوقت، تُظهر الوحدة مرآة عن فقدان الصلة الإنسانية، حيث يتأمل الواحد فى طقوس الوصال والمشاركة التى يفتقدها.

قد تصبح الأرواح التى تعانق الوحدة عن قرب حصونًا منيعة لا تُقهَر، أو تكون كالزهرة فى الصحراء، تتطلع لقطرة ندى تنساب بين بتلاتها العطشى.

هنالك من قال إن الوحدة هى المدرسة التى فيها يتعلم الإنسان أسماء الدروس، ألا وهى دروس معرفة النفس. فى ضجة العالم وصخبه قد يتلاشى الصوت الداخلى، لكن عندما نستعيد الهدوء، يصير القلب مرسى لكل كلمة حق. الوحدة تُعلى من شأن الوعى الذاتى، تُعمّق الحكمة وتصقل الفكر، وتعطى الفرصة لنمو الإبداع.

كما فى هذه الرواية، حيث ينقلكم "شاهين" عبر رحلته الذاتية فى دهاليز الوحدة؛ لتكتشفوا معه أن فى تلك الرحلة تُولد الأسئلة الكبيرة وتُكتب الإجابات الصادقة، فيمتزج بين أحاسيس الخوف والشجاعة، ويصير فى كل خطوة إلى الداخل، خطوة نحو الإنسانية الأعمق.

ستخوضون مع "شاهين" تجربةً تُظهِر كيف أن الوحدة يمكن أن تكون سيفًا ذو حدين، حيث تكون ملهمة ومُدمّرة، مُحرّرة ومُحتجزة، مُريحة ومُرهِقة في آن. وعلى هذا النحو، يتشابك الكفاح مع الكشف والتكشف، ويُصبح كل زاوية من زوايا الوحدة دروسًا تُعَلمنا الفن الرقيق لِفهم الذات والتعايش معها.

◆◆◆

الحلقة الأولى:

"من أكون"

يطل القمر من نافذتى بومضاته الفضية، محفزاً أناملى على الرقص فوق لوحة المفاتيح. كم يروقنى الكتابة تحت هذا السحر الليلى. أجلس على حافة السرير متأملاً صفحة الزجاج الباردة أمامى، أجد نفسى أروى لحضرة الليل أحداثًا ماضية، وهو يصغى معى بصمت رصين. ثم أقف، متوجهًا إلى طاولة الكتابة التى هى ملاذى ومخبأى فى أوقات الحزن تلك المأوى الذى أهرع إليه كما اليوم... وكل يوم.

أنا شاهين، المنازل على الدنيا بمفردى، مجابهاً أمواج الحياة العاتية دون أن يكون لى عون أو سند. منذ ذلك اليوم القدرى حينما طغى على قلبى العليل صمتُ الشوارع إثر حادث السيارة المشؤوم. كنت بعمر الاثنى عشرة حين افتقدت عائلتى، لم يبق الا انفاسى وحيدة تائهة. ذلك الجرح الذى علم الطفولة ما معنى الفقد، أعوامى تسير كظل لا يلوح بالأفق.

اليوم، و أنا ابلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا من العزلة، أقضى حياتى فى دهاليز منزل يشهد على زمان كان فيه والدىّ لا يزالان بين أحضان الحياة.

الميراث هو الشيء الوحيد الذي أحتضنه بعد رحيلهم، و متوارثًا وحدتي في بيتٍ يسكنه الصمت. منزل بدا كفيلًا بأن يعزلني عن العالم، ما خلا غرفتي التي تعج بالكتب؛ ذلك الكون الذي أرتمي فيه بين أكداس الحروف والأوراق.

أنا، العابر في هذه الحياة بقلمي حروفًا وقصصًا، مؤلف روايات، أمضي قطاعات واسعة من حياتي في زاوية تنحصر بين سرير وطاولة وسطوع نافذة تلخص كل شيء وتبقي بقية الكون وتفاصيله خارج جدران حصوني المسودة.

لقد أسدلتُ الستار للتو على صفحات كتابٍ لذلك المرهف ديستوفيسكى، "المزدوج" اسمه، حيث يتحاور الواقع مع السراب فى طيات حكايته، يعاين جراح النفس البشرية التى تأسرنى معرفتها. وما هى إلا لحظات حتى بدأت بصياغة مقالى الذى يشرح الكتاب، وأيدى تتراقص فوق المفاتيح كما دائمًا، حتى نبهتنى ذاكرتى إلى فكرة غابت عنى. فتحت درج المكتبة لأستخلص "المزدوج" مرة أخرى، حين شد انتباهى كتاب آخر كنت مقررًا قراءته يومًا، بعنوان "أعيش فى كل نفس". تحسست الكتابين بيدى وأعدتهما إلى محراب الطاولة، وتعمقت فى الفصول بحثًا عن التفاصيل التى أشتهى توضيحها.

السكون فى الحجرة كان منمقًا كلوحة ماستر،
ظلال وأضواء متناغمة مع نسيم الليل القادم من
النافذة المشرعة. انغمسْتُ فى الفراغ الذى
يملؤه صوت طقطقة الأزرار والهمس البعيدَ
لحروفى وأنا أضع النقاط على مقالى عن
"المزدوج". بكل ما فى الكتاب من تعقيدات
وأبعاد نفسية، اكتملت لدىّ الكلمات وأصبح
المقال جاهزًا ليُشارك شغفى وتأملاتى عن
كتاب ديستويفسكى.

بحثت عن وسيلة أُخرى لبث الحياة فى أمسيتى،
فسقط نظرى على "أعيش فى كل نفس"،
وبنبرة عزم جم، انتزعت الكتاب من على
طاولتى، وألقيت بنفسى على السرير الذى صار
يتسع لعالمى كله.

الساعة تشير إلى التاسعة مساءً, وقت لا
غروب فيه ولا شروق، فقط امتدادٌ
للدقات في كوني الهادئ.
تفاصيل الكتاب المتشابكة تفتح بابًا
جديدًا أمامي، تُظهِر لغزًا روحيًا، كينونة
تتلاشى وتعود في كل صفحة أقلبها.
شعور غريب يتسلل إلى وجداني؛ شبه
دعوة لأُضيء مصباح الفكر وأرَى ظلال
نفسي بأبعادٍ جديدة.
انتهيت من الفصل الأول، قلبي يخفق مع
ملامح الأحداث، بينما أقرأ وأتأمل،
وأُقدم على الغوص في الفصل الثاني.

عندئذٍ، وبشكلٍ مفاجئ، انقطع عمق الهدوء الذي أُحبه بصوتِ طرقاتٍ على بابي، الباب الذي تُجاهل وجود المارة والزوّار لوقت أطول مما يتذكره الجدار الذي يحمله.

استفقت من كنف الخيال، وأصابعي لا تزال تحتضن كتاب "أعيش في كل نفس". من يُمكنه أن يكسر حصن عزلتي؟ من ذا الذي يعلم بوجودي في هذا المعتكف الذي صنعته من الكتب والورق؟ لم يكن يزورني أحد... منذ...

قلبي المعتاد على الانزواء بدأ يخفق بتوتر. التردد يتصارع مع الفضول لمعرفة هوية الطارق.

عقلى ينهل من بئر التكهنات، لكن لا يخطر ببالى سوى الفراغ الاجتماعى الذى كرست نفسى فيه. حشرجة فى نفسى، وأخيرًا وبخطواتٍ مترددة، أتجه نحو الباب. مع كل خطوة، تتعالى ضربات قلبى كطبول تعلن عن مسرحٍ جديد للأحداث قد يفتح فصلًا آخر فى حياة "شاهين". أبلع غصة التوجس، وأستجمع شتات الجرأة لأُدير مقبض الباب، متسائلاً... ما الذى يخبئه القدر خلف نقرات الباب فى هذه الساعة المتأخرة؟

الحلقة الثانية:

"سحر جمالها"

فتحتُ الباب بتؤدة، فأطل النسيم البارد قبل أن تلوح فى الأفق فتاةٌ بأسرةٍ من الجمال الصافى. تلك العيون الواسعة كأنها مُستلهمة من براءة الغزلان، يعكس ضوءها اللامع التأمل العميق. وذلك الشعر الطويل، غامرٌ بسواده، يُغرى بظله كل ما يقع عليه من أشعة الشمس، يكاد يعمى بجماله كل العيون التى تجرؤ على التحديق به.

أنفها، ذلك التمثال الناعم، يستقرُ بعنفوانٍ وسط محياها كجسر نحيل بين عالمى الروح والجسد، وإيماءاتها الرشيقة، وطولها الذى يُشبه قوام الصنوبر الشاهق، كلها تلتقط الأنفاس إعجابًا ودهشة.

وتلك الابتسامة التى زينت شفتيها، تبدو وكأنها جرس يدقُ فى أعماق القلب، تُنذر بترانيم قادمة.

وُضِعتُ فى حيرة من أمرى عندما همست بلغة الوداعة "مرحبا" ، وأجبتها بـ "أهلًا" ، فتحت قلبى كما أفتح بابَ بيتى، وتساءلتُ بصوتٍ يغمره الحماس: "كيف يمكننى أن أساعدكِ؟"

ارتجلتْ الفتاة الجميلة إجابةً، فأخبرتنى بأنها وعائلتها رُزَحوا لتوهم فى هذا الحى، وأن المنزل الذى يقف أمامى، بكل نوافذه الصامتة وأبوابه التى تتوق للأصداء، قد أصبح بيتهم. وبسخاء الروح، قدمتْ لى صحنًا من الحلوى كرمزٍ لبداية جيرة طيبة.

أخذتُ الصحن من يديها ولم يسعنى
سوى أن أتمتم "شكرًا جزيلًا" بعفوية.
وفى لحظة وداعٍ، كادت أن تكمل خطواتها
الأنيقة بعيدًا، ولكن شيئًا ما دفعنى
لأناديها من جديد: "لو سمحتى!" التفتت
نحوى بنعومة ولم يكن فى وجهها سوى
ابتسامة جميلة تصلُح جسرًا لكل كلمة
يمكن قولها.

"هل هناك شيء؟"، قالتها بنفس
الابتسامة التى رحبتُ بها وأنا أحييها
كجارة جديدة، وبعد ذلك، أطبقتُ الباب
خلفها بانتشاء يختلط فيه الارتياح بقلق
اللقاءات الأولى.

حدقتُ فى الصحن المُزخرف وقد زُين بقطع الحلوى التى تحمل وعدًا باكتشاف طعم جديد للحياة، وتناولتُ منه قطعةً تلو الأخرى، ولكن كان هناك شيء ما فوق الطعم يتسرب إلى حواسى، إنه الذكرى والتقدير.

بعد أن استسلمتُ للنوم بعد تلك الحادثة، تعود الذاكرة الآن فى صباحٍ يضجُّ بأصوات الانتقال، مع نقل العفش فى السادسة صباحًا. ألقيتُ نظرة من الباب ورأيتُ ذلك الحى الهادئ يخلع عباءة السكون ليتلبس بزى الحياة.

هنا، كل كلمة تروى حكاية الدهشة والوجد وتُرسم صورة يملؤها الترقب لما يخبئه المستقبل من مُفاجآت وعلاقات جديدة، كل كلمة تعد بسرد مستمر لا تنتهى عند فصل أو مشهد.

فتحتُ غلاف الكتاب الذى أسكن أفكارى فيه
منذ الليلة الماضية، كطائر يعود إلى عشه
تاركًا سماء التأملات.

عيناى تلتقطان الحروف، سطرٌ بعد سطر،
ولكن عبارةً بعينها توقفت بى نبض الزمن،
تتراءى أمامى كرسالة مكتوبة بلغة غامضة
ومليئة بحكمة خفية: "ليس كل شىء ملموس
قد يكون ملموس." عجزتُ عن فك ختمها
بمفاتيح فهمى، لكن شعرتُ أن هناك صدى
من هذه الكلمات الباطنية يقرع أعماقى
بلطف.

من شدة إعجابى بهذا الخِطاب المُتَشفِّر، امتدت يدى إلى ورقة فارغة لتدوِّن كنزى الجديد، ومثل فنان يعلّق لوحته على جدار، قُمت بتثبيت الورقة فى مكان يجعلها منارةً تستقبل البصر كلما أويت إلى غرفتى.

تسرّب إلىّ الجوع، ورسم معدتى خرائطًا إلى المطبخ. فسرتُ متجهًا نحو المطبخ لأتناول أىّ شىء يكفى لأبدأ يومًا جديدًا. لقمة هنا وشربة هناك، ولكن ذهنى كان مازال يعود إلى الجدار والكلمات المعلقة عليه.

خرجتُ من غرفتى، أتخذ من ملابس اليوم ستارًا يُخفى ترقب الأحداث وغموض الغد، وذهبتُ لفتح باب المنزل وكلى آمال بيومٍ مثمر.

وإذ بالفجر يقدم لى هدية ثانية بتلك الفتاة التى تبرق كشمس الصباح بابتسامتها الصافية.

"صباح الخير" قالتها بمودة، ورددتُ كمن يسبح فى النور "صباح النور." وتلقائيًا، انسكب السؤال منى كمعين يفيض "هل تريدون أيّ مساعدة؟"

رُدَّ لى الجواب بلطف "لا شكرًا لك، سوف ننتهى." وظلَّت بسمتها المُستقرة فى الأفق شهادة على نواياها الطيبة.

نزلتُ الدرج، ومع كل خطوة، كنزلة نغم على عود، تتفتح الأسئلة فى داخلى.

"لماذا هى من يقود نقل العفش؟" "لماذا لم يبدُ والدها لتحمل هذه المهمة؟"

تولّدت الفرضيات فى ذهنى وراوحت بين هذا وذاك. ولكن فى النهاية، استقر بى الأمر أنه قد يكون هناك ألف سبب وسبب، وفى جميعها ليس من حقى أن أحكم أو أتدخل.

لهم حرية العيش والاختيار.

أتخذتُ من السوق مسرحًا لخطواتى، هذا المكان الذى يسكنه صخب الأصوات وضجيج الحركة، فيه ثانى أكبر ما أمقت بعد الزحام الذى يُحاصر الأنفس فى إحكام. لكننى كنت هُناك غايتى: البحث عن كتبٍ الظلال تلفّها بعيداً عن أضواء الشهرة، تلك التى يتجاهلها الكثير من المقرئين.

بتمهل، اخترتُ كتبًا لستُ بحاجة لأن تُعيَّن لي، فحبّ القراءة لديّ بلا حدود ولا قيود، وقد أغرمتُ مؤخرًا بنوافذ الأذهان التي لا تفتح إلا بأقلام قليلة الذكر. خمسة كان عددهم، كافيين لأسكنَ بهم روحي التوّاقة للاكتشاف ومعيتي المتعطِّشة للإلهام.

مع الكتب تحت ذراعي، عدتُ إلى وكري السلمي، منزلي، الذي تُسلِم فيه الجدران أسرارها لمن يسكنها. ألقيتُ بحِملي خلف الطاولة، جلستُ كما تجلسُ الروح في جسد، وبين أناملي احتضنتُ القلم كمن يحتضن حبيبًا.

بدأتُ الكتابة، وإن سألتمونى عما أحبرُ به الورق، لكان الجواب: هى؛ تلك الفتاة بجمالها الطاغى الذى يفرض على القلم أن يرقُص على نغمات خيالى. وأما الكلمات، فكانت تغدو صفحات الورق رقَّةً كما هو جمالُها.

وفى لحظةٍ من لحظات الغرق العميق فى الكتابة، رفعتُ رأسى فى إستراحة مقاتل، كمن يلتقط الأنفاس بعد سباحة فى أعماق البحر. وإذا بى ألاحظ غياب الورقة، تلكَ التى كانت معلقة هناك، والتى خطفتُ سطوراً من كتاب وأثبتها على الجدران كأنها وسام شرف للجدار الأبيض.

الإبحار في حيرتي كان كالبحث عن جزيرةٍ في وسط المحيط دون خريطةٍ أو بوصلة، أين اختفت؟ هل الريح هو الجاني، أم أن هناك سببًا آخر لهذا الغياب المفاجئ؟ أثر الورقة ما زال في عقلي بينما الورقة نفسها قد فقدت من مكانها، تركتني أتساءل بصمت، أين يمكن أن تكون ذهبت؟ تابعتُ البحث بشغفٍ عابر، مسحتُ بعيني الأرض بحثًا عن ذلك الشريط الورقي المفقود، لعله وقع دون أن أدرك. خزنتُ الزوايا وتحت كل أثاث، لكن لم تكن هناك بصمةٍ تدل على كانته أو موضع نزوله، اختفت وكأنها كانت هلامية تتبخر في الهواء.

ضربتُ الشك ببعضٍ من اللامبالاة،
فالحكمة التي كانت بالورقة لا تزال
تعيش بالكتاب؛ ليست ضائعة بل
مُستقرة بين دفتيه. وركزتُ على أن
القيمة الحقيقية لم تُفقد، بل ما هو إلا
تذكرة مادية تمّ تمثيلها في رمزٍ ورقي،
وأما ما يحمل داخلي فلا ينفصم.
بعودة إلى قلمي وأفكاري، منحتُ
الاستمرارية لعزفي على أوتار
الصفحات، غارقًا مُجددًا في التعبير عن
جمال فتاة خلوقة السِحر، نسجتُ من
خيالي خصلات شعرها وحاكيتُ
بالحروف ملامحها.

لكن الجسد يدعو بعد هذا الانهماك الذهنى
إلى الاستسلام لراحة النعاس. فارتفعتُ ببطء
عن كرسى الكتابة، تاركًا ورائى عالم
السطور والأقلام، وتوجهتُ إلى فراشى الدافئ
بخطىً مُثقلة بالكلال.

وفى هذا الزمن الهادئ بين ضوء النهار
الخافت وسكون الليل الوشيك، غصتُ فى
نومٍ عميق، نومٍ يأخذ الروح لعوالم أخرى
بعيدا عن تفاصيل العالم الآنى، فيه تُحلَّق
الأحلام فوق مرج الوعى وترسو الهموم عند
موانئ السكينة.

الحلقة الثالثة:

"ليلة الدموع"

فى صباح أحد الأيام المشرقة، امتلأت الغرفة بضوء شمس الصباح الذهبى الذى اخترق النافذة، وأنا أجلس هناك، على حافة السرير، أتأمل ذلك المنظر بسكون. ومع الانتقال إلى الروتين اليومى، وقفت أمام المرآة التى تعكس صورة مطبخ قديم، وهناك لمحت الصحن، نعم، ذلك الصحن الخاص الذى لا يحمل أى صحنٍ آخر مثله معانى ذاتية، حيث ظلت اللحظات المتعلقة بتلك الفتاة الجميلة تعبق فى الهواء.

امتلكتنى فكرة واحدة، كان لا بد من رد الجميل، ومن هنا نشأ قرارى البسيط؛ توجهت إلى أقرب متجر حلويات، اشتريت علبة لطيفة وعدت إلى البيت.

لم أستكن طويلاً فى الداخل، فالزمن لا ينتظر؛ كانت اللحظة المناسبة لأطرق بابهم. وبعد فترة وجيزة من الانتظار، ها هى تظهر مرة أخرى، الفتاة بتلك الابتسامة التى تبعث على الدفء.

"صباح الخير" ، بادرتُ بالتحية.

وبالمقابل، استقبلت كلماتى بنفس الحفاوة والطيبة.

الوقت كان يسير بخفة، ومع كل ثانية كانت تقترب أكثر، فقدمت لها العلبة، واحتارت، لمَ كل هذا العناء؟ لكن ليس كل تبادل يستلزم سببًا، فبعض الأمور تُقدم لمجرد الإحسان. دعتني لشرب القهوة، رفضت بهدوء، القهوة الصباحية أفضل أن تُشرب في هدوء البيت. وهنا سُئلت السؤال، "هل تعيش وحيداً؟" واخترت كلماتي الصمت أولاً، لأكشف لها بعدها عن الوحدة التي تسكن محيطي في المنزل دون التحدث عن حادثة عائلتي.

أكرمتني بدعوتها إلى داخل منزلها، ومع بعض التردد ولكن باقتناع في النهاية، وافقت. هناك في غرفة المعيشة، حيث الشمس تغمر كل زاوية بجمالها، وألحان الموسيقى تنساب برفق بين جدران المكان، شعور جميل تسرب إلى الروح.

تجاذبنا أطراف الحديث، وسط شعور متزايد بأن بعض الأشياء لا تبدو صحيحة تمامًا فى كونى هنا، لكن كلمة واحدة منها وابتسامتها العابرة كفيلة بإذابة أى تردد.

فى تلك اللحظة، سُئلت عن اسمى، وأجبت "شاهين"، وهى "تالين". وكطرفة خيط الفجر، كان اسمها فاتحًا لقلبى لدرجة أن القهوة نفسها بدت مريرة مقارنةً بحلاوة الاسم. المغادرة كانت لا مفر منها، ولكن قبل أن أغلق بابها خلفى، شكرتها بكل احترام وتقدير.

عدتُ إلى مكتبى، إلى طاولتى حيث أُكمل الكتابة. الكلمات تنسكب الواحدة تلو الأخرى، تتحدث عنها، عن "تالين"، كأنها قصة مكتوبة بين السطور.

غمرنى شعور السأم بأكمله، ذلك النوع الذى يتسلل إلى جميع جزيئات الكيان حتى يختلط مع الأنفاس. فى خضم محاولة للهروب من هذا الروتين الممل، أمسكت بالهاتف كمنقذ أخير لى. وبينما أتصفح الأخبار، خطَّ القدر أمام عينى إعلانًا عن مسرحية قريبة، ستكون على مرمى حجر من بيتى. "لما لا؟" همستُ لذاتى، فى رغبة للانعتاق ولو لحظيًا مما أُحاط به.

عقارب الساعة كانت تشير إلى أن الفرصة آتية بعد ساعة فقط. فما كان منى إلا أن ارتديت ما يُلائم تلك الخروجة الطارئة، وابتعدت عن عناء الغرف المغلقة. بخطوات هادئة وأفكار متناثرة، مضيت نحو المسرح، المكان الذى سيحتضن اليوم جزءًا من وقتى الثمين.

دفعت ثمن البطاقة وجلست، وكأنى أتجهز لاستقبال نسمة هواء جديدة قادمة بقوة الفن والتمثيل.

الأجواء استحالت إلى لوحة حياة معلقة بين ممرات الصفوف، فبدأت المشاهد الأولى المبهرة تستعرض قصة الحب العذرى بين شابٍ وفتاة. أحسست بتأثر، بتواصل روحى لست أعهده فى أيامى الأخيرة. لكن القدر كان لى شيئًا آخر فى جعبته، إذ ما لبثت المسرحية أن انتقلت لمشاهد تصور العائلة. هنا، شىء ما بداخلى بدأ يتصدع، فالأمر لمس شغاف القلب دون إذن.

شعورٌ بالضياع أعقبه انهيار لجدران القوة التى بنيتها حول نفسى، فقفزت مسرعاً خارجًا من بين الجموع.

الدموع، تلك الرفيقة الثقيلة، فيضت دون استئذان، تُغرق خطوات العودة المرتعشة. أصعدُ إلى شقتى، لكن أتوقف عند السلم؛ ملاذ يضم وحشتى، وجعى، والسؤال الحائر "لِمَ أنا؟"

أضعُ رأسى المثقل بأثقال العالم على يدىّ، أترك للبكاء حرية أن يسلك طريقه، أن يُعبر عن تلك الحسرة التى طالما حاولت أن أخفيها خلف جدار الصمود. لكن لِمَ يا ربى هذا القدر؟ لِمَ أعيش حكاية فى غياب العائلة، فى غياب من يُعيد إلى قلبى نبضات الأمان؟ تائهٌ أنا فى بحر الوحدة، أُنادى بصمت موجع: ليس هناك من يُجيب، لا أحد بجانبى.

تالين:

فى عمق حنايا الليل، شعور غريب أحسست به يخترق سكون المكان، كأنّ قلقاً يهمس خارج أسوار المنزل. تسللت الى الباب لألقى نظرة، صوت خافت يأتى من الخارج. قررت فتح الباب، وإذا بى أجد شاهين، كان يغرق فى نهر من الحزن، جالسًا على الدرج ويبكى بلا وعى.

اندفاع طبيعى يملأنى، ركضت إليه، وبيدى ألمس كتفه الذى يرتجف. "ماذا بك يا شاهين؟" صوتى يلين، محاولة للمساندة. لم يصدر عنه أى رد، مجرد صمت يصرخ بالألم. برفق جمعته، أدخلته إلى داخل منزلى، كأنى أحمل قطعة من روحى المتألمة لأضمها.

هناك على الأريكة، حاولت فتح باب الحديث من جديد. "شاهين، ماذا بك؟" هذه المرة، كلماته بدأت تتساقط كأوراق خريف مبعثرة، "لا أحد بجانبي." هذه العبارة قطعت شيئًا داخلي، شعرت بقلبي يتمزق.

"ماذا حدث يا شاهين؟" سألته بصوت خايف، وإذا به يفتح أبواب قلبه الموصدة، يسرد قصة فقدان عائلته في حادث مؤسف في زمن الطفولة. حكاية زلزلت عالمي، جعلت الدموع تترقرق في عينيّ مختلطة بملح الأسى.

لا شعوريًا، ضممت يده بين يديّ، فتحول بكائي لرفيق بكائه. "يا شاهين، اعتبرني جزءا من عائلتك." كانت كلماتي تبحر في دموعي. نظر إليّ بعينين يائستين، لكنها تحملان شكراً صامتاً.

عندما عرضت عليه بعض الطعام، كان الرفض أول جوابه؛ الحزن والنعاس يخيمان على جسده. لكنى أصررت، فأحضرت له شيئًا يأكله وبدأ يتناوله، كأنما الطعام يعيد إليه بعض واقعه المنسلخ. وهنا، غارقًا شبه نائم، سألنى "يا تالين، هل تعيشين لوحدك؟"

الألم يكاد يخنقنى وأنا أفكر فى كيفية الرد، "لقد سافروا للضيعة، سيعودون قريبًا." لم أكن مستعدة للبوح بحقيقة وجعى، لم أكن مستعدة لأقول أن الوحدة هى رفيقتى أيضًا.

كان يريد العودة إلى منزله، يشكرنى على العناية وأنا أودعه بقلب مثقل، أراقبه وهو يبتعد شيئًا فشيئًا إلى ثنايا الظلام، تاركاً خلفه صدى "شكرًا لكِ" يتردد فى ذاكرة مؤلمة.

كان يخطو نحو باب المنزل، لكن الدوار سرعان ما أسره، وهو يفقد توازنه عند العتبة. بسرعة البرق، تملكتني الحاجة لإنقاذ ما تبقى منه، فأمسكته قبل أن يقبل الأرض.

لم يكن وقت للتردد، فعزمت على مواكبته إلى بيته يقودني القلق الذي تحول إلى واجب. وبعد أن فتح الباب، كانت خطواتي حذرة وهادئة وأنا أضعه على السرير، وتوشحت عيني بقبة القلق وأنا أغطيه باللحاف، أتركه تحت رعاية الدفء والسكينة.

وبينما كنت على أهبة الرحيل، كلام تسرب من بين شفاهه، كلام يحمل وزن الخوف والاستسلام. "تالين، خُذي هذا... مفتاح المنزل. لو مت، افتحي الباب..." قلبي حينها تشظى، وكأن كلماته سهام نفذت إلى العمق.

وبالكاد صرخت "اصمت! لا سمح الله، لن يحدث لك شيء. فقط... نام الآن."

بقيت هناك، حارسة غفوته القلقة، فى انتظار أن يستسلم الأرق لنوم عميق. وأنا أغادر، شعرتُ بصفاء روحى على غير العادة، لكنّ المُفتاح ظل فى يدى، تذكار من تلك اللحظة المؤججة لمشاعرى الخائفة.

أغلقت الباب خلفى، وكنت على وشك العودة لمنزلى.

لكن تردد باغتنى، فعدت أدراجى دون تفكير. فتحت باب منزل شاهين بهدوء، تسللت إلى الداخل مرة أخرى، ألجأ إلى الأريكة التى كمنت لها أرواح القصص التى لم تروى.

كل نصف ساعة، كنت أنهض كالموجة فى عرض البحر، أتجه نحوه لأطمئنّ على أنفاسه المتواصلة، أتمنى له حياة بقية تحمل له خيوط النور بعد أن أجرف الظلام من حوله.

الحلقة الرابعة:

"أحببتها"

بعمق الليل وأنفاسه الهادئة، استسلمت لغفوة عميقة أحاطت بي كعناق مُطمئن. مع أولى أصوات الفجر وتغريد العصافير أفقت، أتسارع خفية الخطى إلى غرفته. وجدت أشعة الشمس بدأت تتسلل من كوة بالستائر مباشرة إلى سريره. أسرعت بإغلاق الستارة، كلي حرص على ألا يُزعج النور الخافت قسطه من الراحة. كانت طاولته تبدو مثقلة بالأوراق، من الرسائل إلى الكتب والملحقات، تجلب الفوضى جمالاً مستهدفاً بطريقتها الخاصة. بينما كنت أعيد تنظيم الأوراق بلطف، اجتذبت نظري كلمة بارزة كانت 'تالين'.

كان الفضول يزلزل صمودى، فلم أقو على مقاومته وبدأت بقراءة الكتابات. سطوره كانت تعبيراً جميلاً، مواهبه فى الكتابة أبهرتنى، ذلك الجمال الذى ينساب من بين كلماته لفَّ قلبى بطبقة من الدفء. نظرت إليه نائماً بسلام، ابتسامتى كانت تعكس بريق السعادة الذى امتزج بروحى. اتجهت إلى المطبخ، وانتشلت فى جلال الصباح الباكر على أمل إعداد قهوة تُعلن بداية يوم جديد له. بعد بحث فى الخزائن، وجدت دانة الصباح، قهوته. أعددتها بكل عناية، وتسلحت بها متجهة إلى غرفته.

"تالين؟" صوته الذى كسر الصمت جاء محملاً بدهشة ممزوجة بابتسامة مرتعشة. "كيف دخلتى إلى هنا؟" كلمات تفوح منها رائحة الدهشة والإعجاب، بينما ضحكنا يملأ الغرفة بأحلى الألحان. لقد فاجأته برواية ما حصل، لقد ضن أنه لم ينم فى المنزل.

أهديته القهوة، تلك اللفتة الصغيرة التى كانت كالقول "أنا هنا لك". وفيما بين الذكريات والمفتاح، ضحكنا مرة أخرى على ما قاله فى ليلته السابقة. ورغم رفضى، أصر أن أحتفظ بالمفتاح، تركيزه على ضرورة وجوده معى كان إشارة إلى عمق الثقة والمودة التى اكتسحت بيننا.

أخذته للضرورة، واكتمل هذا الصباح بتشارك الضحكات ونكهة القهوة.

بعد أن شاركنا لحظات مميزة وهادئة مع كوب القهوة، شعرت بالتفاؤل واتجهت لإعداد الفطور. إلا أنه أراد أن يعبر عن امتنانه، قائلاً إننى أتعب نفسى كثيرًا من أجله. لكننى لم أسمح له بالاستسلام لتلك الفكرة، كتمت كلماته وأعلنت بإصرار أن يرانى جزءًا من عائلته لا أكثر.

بدا وكأن ابتسامة القبول قد ارتسمت على وجهه، ووافق على ما أردت دون جدال. ومع عبق الصباح، دبت الروح مجدداً فى المطبخ بينما كنت أجهز له وجبة الفطور بحب وعناية. ناديته عندما انتهيت وجاء بخطواته الهادئة إلى الطاولة، حيث انطلقنا فى حديث صباحى عابق بالمودة.

لكننى لاحظت بعد حين أنه لم يلمس طعامه كثيرًا، كأن شيئًا يشغله. عندما استفسرت عن السبب، أجاب بأنه شعر بالشبع. أسرعت إليه بقلق كأنى أخت تكبره سناً وصرمة، أصريت على أنه يحتاج للطاقة وبدأت باطعامه بيدى، محاولة تنويع اللحظات ببعض من المرح والضحك.

بعد الفطور، وقد رتبت كل شىء وهدأت روح الصباح، جاء وقت الوداع. حملت معى بصيص الطمأنينة والألفة الذى غذته تلك الساعات المشتركة، وودعته دون أن أعلم متى ستكون الفرصة القادمة لتشارك مثل هذه اللحظات مجددًا. عدت إلى منزلى بقلبٍ ملىء بالحنان والسلام.

شاهين:

بعد أن شاطرتنى تالين لحظات الصباح وتلك القهوة التى أعدتها بعطف، أعلنت بكل حزم وحنان أنها ستتولى مهمة إعداد الفطور، بينما أنا فعلت ما بوسعى لأبرهن أنى يمكننى التكفل به. ولكنها لم تمهلنى فرصةً للتورط فى اعتراضها، وبينما كنت أحاول الإفلات من إلحاحها، طمأنتنى بلغة أشبه بمداعبة الأم لطفلها أن ما تفعله هو جزء من دورها فى حياتى.

تمكنت من إخراجى من التكلس الايجابى الذى أدخلتنى فيه وجلسنا نتبادل الأحاديث مع فطور ملئته بالحرص والعناية. لحظات مرت تبدو كأنها من زمن غابر حيث الحنان والرعاية يسودان بكل جوانب الحياة.

ومع أن شبعى المعنوى كان كافيًا، إلا أنها أصرت أن أتناول الطعام، وهى تطعمنى بيديها الحانيتين.

كنت أشاهد فى تلك الحركات الرمزية ليس فقط لمسات الاهتمام، بل هى سحر الألفة والدفء الذى تعده تالين سحر الحياة بأسمها. كان صباحًا حيث تلامست أرواحنا على نغمات الطعام والضحكات العذبة.

وبعد أن انتهت الطقوس اليومية وغادرت تالين، جلست على السرير أعيد ترتيب أفكارى وأحاسيسى التى أثارتها تصرفاتها.

قلبى ينبض، وأشعر وكأن روحى تغرق فى بحر من المشاعر التى تجاوزت الزمان يالها من سيمفونية حب عزفتها تالين فى أرجاء قلبى، تتناغم مع كل شىء فيها، من عينيها إلى ابتسامتها وحتى طيات شعرها. يوم غارق بالحب الذى لم أشعر به منذ اثنتى عشرة سنة، يومٌ أعاد لى الذكرى بأن الحنان ما زال يسكن بيننا على الأرض...

أشعر بالذهول وعدم التصديق لما يحدث معى. أسير مترنحاً فى أركان المنزل، وأتساءل مراراً عما إذا كان ما أشعر به حقيقياً. أقف للحظة، أنظر خلسةً من خلال الفتحة الضيقة فى الباب، أرمق باب منزلها محاولاً رؤيتها.

أفكارى تغلى بالتساؤلات، وأقول فى نفسى: "هل أذهب إليها مجدداً؟" لكن الإجابة تأتى سريعاً، بالطبع لا.

أجلس على الأريكة، أحدق فى الفراغ، أحاول أن أشغل قلقى بالقراءة. أفتح الكتاب، أمر بعينى على السطور ولكن دون جدوى. الكلمات تتبخر قبل أن تستقر فى رأسى؛ ذهنى مشتت ولا يمكننى التركيز. أغلق الكتاب بإحباط، وأتسمر فى مكانى وأبدأ بالتحديق فى الحائط. ألتقط هاتفى بشكل شبه آلى وأسمح لأصابعى أن تتنقل بين التطبيقات بلا هدف واضح. الوقت يمر، الساعات تنساب كما لو أنها تمزح مع وسادة الصبر.

فجأة، أسمع طرقاً على الباب يقطع هذا الرتابة. أقفز متأهباً كمن أصيب بالبرق، أتجه نحو الباب وأفتحه. إنها تالين، تنادى فى شوق: "هيا يا شاهين، تعال." تتلو على وجهها ابتسامة تطلب الرفقة. أسألها إلى أين تريدنى أن أذهب، وتقول إنها قد أعدت وجبة غداء أود أن نتناولها معاً. أتردد فى البداية، محاولاً رفض الدعوة، لكن قبل أن أكمل جملتى، تضع يدها على فمى، توقفنى عن الكلام.

أتبعها دون مقاومة بعدما أغلقت باب منزلى خلفى. ندخل منزلها سويةً ونجلس. الغداء كان لذيذاً بشكل لا يصدق، و اجواء الود والراحة تحيط بنا.

هى تضحك وتسأل عن طريقة أكلى قبل أن ألتقى بها، فأجيب بأنى إما كنت أطلب الطعام من المطاعم أو أكتفى بما هو متواجد فى المنزل. يظهر خجلى عندما تعدنى أن يكون للمطاعم نهاية، ولكنى لا أستطيع إلا أن أبتسم وأعترف بامتنانى لحنانها الفائق.

بعد الانتهاء من الوجبة، أعلنت رغبتى بالعودة إلى منزلى. فتوجهت بالقول لى بأنها على وشك اللحاق بى لتحضير الشاى. وبالرغم من شعورى بالحرج من استمرارها فى تقديم المزيد، أعلم أن أى محاولة للاعتراض ستكون عبثية. لذا قلت "كما تريدين". ثم دخلت منزلى، ولا تلبث إلا قليلاً حتى تطرق الباب مرة أخرى.

عندما فتحت الباب، تساءلت لماذا لم تستخدم المفتاح وهى تعبر عن خجلها. فأجبتها، مطمئناً إياها بأن لا داعى للخجل، فالود والعمق الذى تشكله علاقتنا تتجاوز رسميات مثل هذه التفاصيل.

الحلقة الخامسة:

"أرى بعينها أمي"

في ذلك اليوم الذي بدأت به تالين في تحضير الشاي، قررت أن أقترح خطة أخرى. "تالين، توقفي قليلاً." نظرت إلي باستفهام، "ماذا؟" دون تردد، عرضت عليها فكرتي، "لما لا نخرج ونشرب الشاي في مكان ما؟" ومع ابتسامتها الرائعة، أقرت بأنها فكرة جيدة جدًا وأكدت استعدادها، طالبةً بضع دقائق لتغير ملابسها. "لا مشكلة" ، رددت، مضيفًا أنني بحاجة إلى ذلك أيضًا.

ذهبت لتبدل ثيابها وسرعان ما فعلت الأمر ذاته. بدلت ملابسى بسرعة وخرجت من المنزل، أنتظرها بفارغ الصبر. وها هو الباب يفتح، وتخرج منه كأنه ملاكٌ قد هبط إلينا، جمالها أخّاذ وشعرها الأسود المموج وعيناها العسليتان الكبيرتان، أصبت بالذهول وتجمدت فى مكانى وأنا أحدق فى جمالها. اقتربت منى متسائلة ومبتسمة، "شاهين، ماذا بك؟" تلعثمت فى مديحها، "لا... لا شىء، ما شاء الله، جمالك غير طبيعى." ردت بابتسامة خجولة، "شكرًا لك يا شاهين."

انطلقنا إلى مقهى كلاسيكى جميل، يزينه الأضواء الحمراء الخافتة وأنغام الموسيقى الفرنسية. الجو هناك كان ساحرًا، إنه اختيار تالين. تناولنا الحلوى وشربنا العصائر، وفى لحظة لم أكن واعيًا تقريبًا، انزلقت منى الكلمات، "تالين، أنتِ عائلتى." ومع أننى شعرت أنى ربما أخطأت، إلا أن ردة فعلها كانت مفاجأة؛ أمسكت بيدى وقالت، "أعلم بذلك."

ابتسمت لى ابتسامة مملوءة بالحب، ونظرت إلى بنظرة حنونة لم أر مثلها قط إلا فى عينى أمى. "تالين، أنا..." بدت وكأنها تعلم ما أحاول قوله. "أنت ماذا؟" كأنها تلح لأبوح بما فى خاطرى.

التوتر ارتفع، "أنا... بصراحة يا تالين، مُعجب بك كثيرًا." كان ردها هادئًا، ملؤه الدهشة واللطف، ثم سألتنى بالمقابل، "هل تحبنى يا شاهين؟" مع ارتجاف وتردد، اعترفتُ، "أجل يا تالين." وضعت يدها على خدى وترقرقت دمعة بعينها، "وأنا أيضًا يا شاهين." لم أتمالك نفسى، فسألتها، "هل تقبلين أن تكونى زوجتى؟" مع دمعة تنزل على خدها، أجابت بالإيجاب، وبحنان، مسحت دموعها بيدى، مكملاً لحظة جميلة لا تُنسى.

خرجت من المقهى مع تالين، تلك الشوارع الجميلة كانت شاهدة على مشاعرى المتدفقة نحوها. الأشجار تحنو فوقنا، وأضواء الشارع ترتسم على الأرصفة كلوحة تحتضن عشاقها.

انعطفنا نحو الحديقة، مكانٌ يبعث على السلام، وجلسنا على أحد الكراسى الخشبية المحاطة بالأزهار وأصوات الحياة الليلية.

أمسكت بيدها التى بدت ناعمة كالحرير فى قبضتى، ومن ثم، بعفوية الحب الصادق، فاجأتنى بقولها العميق. "أتعلم يا شاهين، منذ أن التقيت بك، أصبحت حياتى أجمل كثيرًا."

نظراتها المتألقة تملؤها العرفان والحب.

قبلت يدها شاكرًا لها الفرح الذى زرعته فى حياتى، وبسكينة، وضعت يدى على كتفى، فتشابكت أنفسنا فى عناق يحتوينا.

فجأة، بدأت الدموع تحجب بريق عينيها العسليتين وهى تكرر الجملة التى أثقلت مسامعى بثقل الدنيا كلها، "أنت عائلتى يا شاهين، حقًا أنت عائلتى." أدركتُ أن هناك ألمًا ما يستوطن قلبها، وفى محاولة لتخفيف وطأته عليها، سألتها عن سبب دموعها، لكنها كتمت أسباب حزنها. شعرت بأن هناك شيئًا يعتصر قلبها، لذا لم يكن أمامى سوى أن أقترح فكرة التوجه لمقابلة عائلتها لنخبرهم بحبنا وخطوبتنا المستقبلية.

صمتها من بعد سؤالى جاء موجعًا، وعندما رفعت رأسها نحوى تبينت ملامح وجهها المختلطة بالحزن والجمال وهى تكشف عن حقيقة مؤلمة أفقدتنى أرضى تحت قدمىّ:

"والدىّ متوفيان، ليس لدى عائلة."

فى تلك اللحظة، لم أجد ما أفعله سوى أن أحتضنها بكل قوتى. أسكب فى عناقى رسائل صامتة تقول لها إنها ليست وحدها، وأننى هنا لأملأ فراغ العالم حولها. ومع ضمها إلى صدرى، تساقطت دموعى بغزارة، معلنةً أن قلبينا قد توحدا فى الفرح كما فى الوجع.

"لنعود إلى المنزل" ، هكذا قالت تالين بصوت مرهق، غزير الحزن. ولكن جزءًا مني أطلب منها البقاء قليلاً بين أحضان هذه الطبيعة الهادئة. "أنا متعبة يا شاهين جدًا" ، تكرر كلماتها وهي تلتمس الكفاية من دموع كانت كالأمطار المتوالية. بحنان المحب أمسك رأسها، وقُبلة حانية مني تهبط على جبهتها، وأضمها إلى صدري محاولاً بذلك أن أحيطها بكل الأمان الذي أملكه وقلت لها، "لا تحزني يا حبيبتي، فأنا دومًا بجانبك".

استجابة لحضنى المعزى، رفعت نظرها إلىّ، وبابتسامة باهتة زينت ملامحها المبتلة وقالت، "أحبك جدًا يا شاهين، كحب السماء للنجوم". هناك فى تلك الحديقة الساكنة جلسنا، حيث كانت الأجواء ممزوجة بالرومانسية الرقيقة وشجون لا تغادر المكان.

لم أستطع سوى أن أجيبها بنفس المقدار من الحب والوفاء، مؤكدًا لها أن قلبى سيظل لها العائلة والملاذ والحماية إلى الأبد.

الحلقة السادسة:

"أحب ضحكتها"

تالين:

بعد تلك الليلة المليئة بالعواطف، قررت أنا وشاهين العودة إلى المنزل معًا. كان القرار مدفوعًا بالحاجة إلى البقاء قريبين ودعم بعضنا البعض. كانت روحى مثقلة بالحزن ولم أجد من يشد من أزرى سواه.

دخلنا منزلى، محاولين ترك وراءنا برودة الليل وألم الوحدة. جلسنا متقابلين على الأريكة، نتبادل نظرات الحب والعزاء، كان وجه شاهين يرسم علامات الإرهاق والنعاس. أسندته بحنان، أتلمس فى لمستى رغبتى بأن يشعر بالأمان والراحة، وضعت رأسه على كتفى، داعية إياه أن يستسلم للنوم فى أمان وسكينة.

بينما كنت أداعب شعره بخفة ورقة، بدأ يغرق أكثر فأكثر فى نومه. عندها بدأت أسمعه يهذى شيئًا ما، كلمات غير واضحة، ولكنها مؤثرة. اقتربت بأذنى أكثر لعلى أفهم ما يقول. "أمى، أمى..." كان يهمس. قلبى تحرك برقة عند سماع تلك الكلمة التى بدت لى كدليل على عمق الترابط الذى تشكل بيننا.

عاجلتها بمسك يده بقوة، كمن يعده بأنه ليس وحيدًا، وفى تلك اللحظة، غصت أنا أيضًا فى نوم عميق، متشابكة الأرواح، نشارك بعضنا العبء والحلم، فى ليلة لا تُنسى من ليالى العمر.

استيقظت على هدوء البيت، الصمت كان عميقًا لكننى فقدت دفء وجود شاهين إلى جانبى. تناديته بصوت يكسر السكون، "شاهين، أين أنت؟ شاهين!" صوت خطواته المألوفة عاد يملأ المكان قبل أن يظهر بابتسامته واكواب القهوة فى يده.

ضحكت بدفء ودهشة وسألته "ماذا تفعل يا شاهين؟" فأجاب ببساطة "أعد القهوة لحبيبتى." هزتنى ضحكة من قلبى لبراءة مسعاه وسألته "يا حبيبى، هل تعرف كيف تعد القهوة حقاً؟" وهو بثقة قال "أجل، تعلمت من الإنترنت."

الضحكة لم تفارقنى وأخذت كوب القهوة بفضول، ومع أول رشفة، شعرت بطعمها السيء، لكن كيف لي أن أكسر قلبه الحانى؟ فقلت له بمرح كاذب "إنها ألذ شيء أشربه بحياتى."

شاهين أراد تجربة إبداعه فاعترضت أنوى الاحتفاظ بكل جرعة لنفسى بدافع الإعجاب الشديد، لكنه أصرّ على الرغم من محاولة تحذيرى.

عندما جرب القهوة، كاد يتقيأها لكنه تماسك بالكاد وركض إلى المطبخ. ضحكت بفرح، ضحكة قلبية لم أعرف مثلها من قبل. عاد ونظراته تخلط بين الذهول والحب.

وعندما سألنى بتعجب كيف أستطع شربها أخبرته أن ما يهمنى هو أنه عمل بجد وحب لأجلى.

اقترب منى وأمسك بيدى، تلك النظرة الغارقة فى الحب مرة أخرى. قلت له مازحة "على العموم، سأحضّر قهوة جديدة لأن هذه سيئة جدًا." وهو ضحك مستسلمًا وأنا ضحكت معه. توجهت إلى المطبخ لتحضير قهوة جديدة بينما كان يجلس يراقبنى كطفل متوق للمعرفة والاكتشاف. نظرت إليه بحنان وابتسم بمشاعر مخلوطة وهو يعود بنظره إلى القهوة وهى تغلى، البساطة فى تلك اللحظات جمعتنا بعذوبة لا يضاهيها شيء.

توغلنا في بحر المزاح والضحك داخل غرفة المعيشة حيث كانت القهوة التي أعددتها تملأ الأجواء برائحتها المغرية. رمى شاهين بمزحة ساذجة وقال "قهوتي كانت الألذ، أليس كذلك؟" مردت نعمًا مع ابتسامة دافئة وجانبية، "بالطبع يا حبيبي، قهوتك كانت الألذ شيء في الحياة كلها" ، ثم قهقهنا معًا على النكتة البريئة.

مع ختام شرب القهوة، أنقل الموضوع إلى الجوع، أثير سؤالي "ألست جائعًا يا حبيبي؟" فيجيب بالنفي، لكن أجيب عنه بمزاح "أجل، أنت جائع" وقد أثار فضوله بدهشة "لماذا تسألين إن كنتي ستجوابي عني؟" اعترضت بدعابة وابتسامة مشرقة "أسكت" ، وهو يضحك على مضض.

أتوجه لتحضير الفطور، وعند الانتهاء
أنادى على شاهين، يأتى لنتناول طعام
الصباح سوياً. لكن كعادته، يقوم من غير
أن ينهى طعامه، وأنا أعيده إلى الطاولة
وأتحول إلى الأم الدافئة التى تطعمه بكل
رفق وحنان،

عندما نادى شاهين باسمى، ابتسمت
وتلهفت لأسمع ما يود قوله. "سأذهب إلى
منزلى لآتى بشىء" كانت كلماته، فسألته
بفضول طفولى "ما هو الشىء؟". بغموض
محبب، أشار إلى أنه سيعود، ولم تطل
غيابه حيث عاد حاملاً معه ورقات.

كانت الدهشة تتجمع فى عيونى عندما قدّم لى الورق، يثير فضولى "انظرى ماذا كتبت عنك عندما رأيتك لأول مرة". وأنا بابتسامة وترقب، سألته عمّا كتب بينما شهق متفاجئًا "متى!" أوضحت له بشغب متناهٍ "عندما أعطيتنى المفتاح، رتبت طاولتك ورأيتهم فقرأت". وهو يتهمنى بالمشاغبة والفضول، سأل إن كانت كلماته قد أعجبتنى.

أجبته بلطف وحب متأصل فى القلب "هل تسألنى؟ لما تعلم جوابى يا حبيبى؟ كل شىء منك جميل." وبحركة دافئة، قرّبنى إلى صدره فى عناق يملؤه الحب والألفة.

وأنا كنت ممسكة بتلك الورقات، أثّرت له برغبة فى الاحتفاظ بها. أجاب دون تردد "بالتأكيد" ؛ قطعات من قلبه الصافى.

وعندما قدمت له مفتاح المنزل، أبدى تعجبه، فأردفت بحكمة قائلة "لا تعلم ماذا سيحدث، لذلك ابقِه معك". فالحياة تأخذ منحنيات غامضة، ومن الجميل أن نترك لأنفسنا مساحة وحرية حتى ونحن وسط حب عميق.

شاهين:

كنت جالسًا على الأريكة، هاتفى بين يدى، أقلب فى الأخبار والمنشورات برتابة، بينما هى تكرس وقتها لتنظيف المكان الذى نعيش فيه معًا. صوت الرنين قطع صمت الغرفة، كان هاتف تالين يرن والمتصل هو عمها. مشيت نحوها وأخبرتها بأنه عمها، متسائلًا هل حدّثته عن علاقتنا؟
تناثر الحيرة على ملامحها وهى تقول "لا، من الغريب أن يتصل، فهو لا يحادثنى عادةً". ورغم الاستغراب، أجابت على الهاتف وابتعدت تتحدث. كنت أتأملها من بُعد، قراءة تعابير وجهها كانت كالكتاب المفتوح أمامى.

عندما عادت، كان بإمكاني ملاحظة التغير الذي حلّ بوجهها. بدا كما لو أن خيوط قلق تراقصت هناك. سألتها بقلق مماثل "ماذا هناك حبيبتي؟"، لكنها حاولت إخفاء مكنونات قلقها "لا شيء حبيبي، عمي يرغب بالعودة إلى البلاد والإقامة هنا."

رفعت حاجب الاستفسار، وتساءلت بحذر "هل عندك؟" ردت بسرعة "بالطبع لا، لكنه يود الإقامة في هذا الحي تقريبًا". شعرت بأن هناك ما يختفي بين الكلمات، وبعينان تتلمعان بالحرص سألتها "هل يوجد شيء تخفينه؟" تالين وبأنفاس متوازنة أجابت "حبيبي! هل كانت هناك مرة أخفيت عليك شيء؟" فأجبتها بنعومة "لا يا حبيبتي".

قالت بثقة ونوع من الجدية التى تحاول أن تسكن فيها روح الطمأنينة "إذًا لا أخفى عنك شيء".

أومنت برأسى موافقًا، فعادت هى لمواصلة عملها.

الحياة مع تالين كعبور جسر متين، حتى إذا حامت الشكوك، هناك ثقة تُشعِل مصابيح اليقين فى ثنايا القلب.

الحلقة السابعة:

"خطبة من رحيقنا"

لحظات كتلك تُنسج من خيوط الذكريات الدافئة، يوم أخذت قراراً بأن أشارك حبيبتى أنغام قلبى المكتوبة، شعراً وقصائد، التى كنتُ قد سكبت فيها عواطفى قبلاً. تركتها بابتسامة تشى بالموافقة وعدتُ حاملاً ذلك الكتاب، هدية متواضعة تنثر جوهرمى.

عندما أعطيتُها الكتاب، كانت فضولية "ما هذا الكتاب؟" أخبرتها بكل فخر وحب أنه مجموعة من أشعارى وقصائدى التى خطّها قلمى ذات وقت، وكنت أرغب فى أن يكون لها قسط منها.

تناولته بلهفة وبدأت تتصفحه، ولاحظت الفرح يرتسم على وجهها مع كل كلمة تقرأها. "أحبك كثيرًا يا حبيبى" ، قالت وهى تعانق الكتاب إلى صدرها ككنز ثمين.

سألتنى عن اسم الكتاب، وأنا بصدق قلت لها "لا أعلم والله، لم أسمّه". فأجابتنى بكلمة عذبة "أحبك". ابتسمت مازحًا "هل هذا اسم الكتاب؟" فردت بضحكة محببة وضربة خفيفة بلطف ومزاح "لا يا أحمق، أحبك أحبك. "

تعالت ضحكاتنا معاً فى أرجاء الغرفة، وأكملت تالين بعفوية وصدق غامرين "كلمة 'أحبك' هى ما كان يخفيه قلبى منذ فترة، لكن الآن أنا فرحة لأننا أصبحنا قريبين جداً لأستطيع قولها لك". كلماتها كانت كالسيمفونية التى داعبت آذانى ولامست قلبى بحنان.

كان يومًا يُنقش فى الذاكرة بأحرف من نور، يوم تشاركنا أحاسيس مكتوبة وأحاسيس معاشة، وافترشنا ورق الشعر سجاداً من الألفة والمحبة.

جاءت لى تالين وهى تحمل بين طيات كلماتها طلبًا صغيرًا، معبرة بنبرة تتدثر بالقرار، "حبيبى، أريد أن أنزل إلى السوق." فما كان منى إلا أن شعرت بموجةٍ من الخوف تتسرب إلى صدرى، خوف يختلط بالحب والحرص، لكننى كتمت ذلك الشعور الزائد عن الحد داخلى، لا أريد أن أظهره. بحيثية طبيعية، قُلت لها، "هل لى أن أنزل معكِ؟"

بابتسامة تحمل الرفض اللطيف، أجابتنى "لا، حبيبى، لا داعِ، فأنا سأنزل مع إحدى صديقاتى، ولا داعى لأن تأتى." كانت إجابتها واضحة، تحمل الاستقلالية والثقة، فتفهمت رغبتها وأجبت "إذًا سأبقى فى المنزل."

بعد أن خرجت من الباب، راودني الخوف عليها.
مشاعر القلق حملت معها صورة طير صغير، قلبي يريد أن يحتويه من كل اتجاه. وعلى الرغم من رغبتي في حمايتها، اخترت الثقة وأجبرت نفسي على البقاء، أمشي ذهابًا وإيابًا في المنزل، أنتظر عودتها بفارغ الصبر.

وقتٌ مضى؛ ساعة ونصف، لحظات تتراكم كالأبد.
وقبل أن أتخذ خطوة نحو الهاتف لأطمئن عليها، كانت الطرقات على الباب قد بددت القلق. انطلقت أفتح الباب بسرعة وكأنما قلبي سبق خُطاي.

"حبيبتي، تأخرتِ كثيرًا" أُفصحتُ بقلقِي. "حبيبي، لم أتأخر" كانت ردها بسيط ومُنير ولكن أصررت "لا، تأخرتِ" فردت "كما تريد."

دخلت وما لبثت أن أمسكت يدى قائلةً، "اجلس." أتبعتها فى الجلوس، وبجوارى استقرت، وفجأة فتحت صندوق صغير وقالت "حبيبى، إنهم المحابس".
فاجأتنى وأدهشتنى، "هل اشتريتِ محابس؟" تسائلت.
أكدت "أجل" فسألتها بلهفة "ولماذا لم تقولى لى؟ كنت سأنزل معكَ." بنفس الثقة والود قالت "حبيبى، لَا داع، أنا وأنت واحد." كلماتها كانت كالدواء لقلبى، نظرت إليها بكل الحب الذى يمكن أن يحتويه قلب إنسان، وتبادلنا المحابس.

كانت تلك الخطوة، صحيحًا، ربما لم تكن متوقعة أو قد يراها البعض غير ملائمة، ولكن لم يكن هنالك حل آخر يقينا فى نفوسنا، وقد اتخذت تالين قرارها بحب وتقدير. "هذا الشيء الوحيد الذى يمكننا فعله"، وبذاك كانت لحظة حب خالصة وقرار مشترك نُسَج من خيوط الود والتفاهم.

أضاءت لحظاتنا المعتادة، وهى ترتكز رأسها على صدرى، كأنها تستمع إلى نبضات الحب المنبعثة منه. تبادلنا الأحاديث والأمسيات الجميلة التى باتت جزءًا منا، معانقةً لجمال اللحظة ودفئها.

نظرت إلىّ بعيونها الفاقدة، تشع منها الثقة والحُب، ودون أى مقدمات قالت "شاهين!"

فأجبتها "عيونى" لأعبر عن استعدادى لسماع أى شىء تودّ قوله. نظرت الىّ بنبرة خفيفة وصادقة "وعَدنى أنك لن تتركنى فى كل حياتك، وتسعى دائمًا لتبقى بجانبى."

كانت تلك الخطوة، كالقطرات الناعمة التى تتساقط على نبضات قلبى الهادئة، اقتربتُ من رأسها وقبلتها بلطف، صادقًا فى وعدى "أنا دائمًا سأكون بجانبك يا جميلتى".

كانت من غير المقرر أن تأتى تلك اللحظة الفرحة بمزاح، فقد مزحت، "ألا تحلق لحيتك؟ إنها تجرح رأسى عندما تقبلنى!". بُعث من قلبى ضحكةً دافئةً وقلت بعفوية " لأجلك، سأحلقها قريبًا." بذاك الوعد العابر، حققت لحظة ثمينة وحميمة مغطاة بألوان الحب والمزاح البرىء.

وجدت نفسى أغوص فى روتين لطيف؛ ألعب بتلك الخصلات الناعمة لشعر حبيبتى الجميلة، التى فى حنانها تساقط النوم على جفونها واستسلمت له بهدوء. وضعت رأسى على رأسها بعناية، كأنما نحن النغمتين على وتر واحد، وسرعان ما تملكنى النعاس العميق.

حلمى أخذنى إلى عالم آخر، مكان ممتلئ بالورود، وأرض مكسوة بتلك البتلات الناعمة. وفى صمت الحلم البرىء، رأيت تالين جالسةً على الرصيف، بكاميرا فى يدها. نظرتها كانت ثاقبة، محملة بمعانٍ تفوق الكلمات. اقتربت أكثر، حتى يلتقط الضوء لحظتنا فى سِحْر الصورة.

أمسكت الصورة من يدها، أريد أن أرى العالم من خلال عيونها المُصورة، لكن الصورة كانت فارغة. لحظة الذهول تلك أفاقتنى مذعورًا، وكأن قلبى غادر صدرى، ووجهى يتلون بحمرة الفزع.

حبيبتى، بجانبى كعادتها، كانت يداها مأوى لى، سألت بقلق وحب "ماذا بك يا حبيبى؟ ماذا رأيت؟" كلماتها تحاول اختراق صدرى الثقيل، لكن الصعوبة فى التنفس سكنت أنفاسى، ولم أستطع التحدث.

بلطف العشق الذى يفوق الكلمات، جلبت لى الماء، وشربته ببطء، فردت الحياة إلى رئتى. تنهيدة طويلة وأخبرتها بأن لا داعى للقلق، "لا تخافى حبيبتى، كان مجرد حلم مخيف".

استجابت برأفة تعرفها روحى جيدًا، أمسكت برأسى وضمتنى إليها بقوة، تهدئ من روعى وتعيدنى لهدوءى. فى تلك الأحضان شعرت بأن حتى الأحلام السيئة لا يمكنها أن تخترق الدفء الذى نخلقه سويًا.

الحلقة الثامنة:

"أقترب زواجنا"

تدفقت الأيام والساعات وابتسمت الدقائق المرحة، عندما جلست أنا وتالين قريبين فى دائرة الحب التى نسجناها.

حتى النظرات بيننا تظل ملتصقة كأنها الأشرعة التى تملأها نسمات حبنا.

كل مغامراتنا، كل جولاتنا، كل الأشياء البسيطة والكبيرة، كلّ فيها أصبح نجسمها معًا، والحياة بالنسبة لى كانت كقوس قزح تكتمل ألوانها فى وجودها. كانت حياتى من الأسود والأبيض طغت على لوح صغير، الآن هو فن اللوحة المفعمة بكل ألوان الحياة.

يا إلهى، كم أحبها! كم أستمتع بنطق اسمها، كم أحب العيش معها! إنها ذروة سعادتى، روحى وقلبى، وحديقتى ذات الألوان الزاهية، وهى تغرس فى حياتى زوايا الفرح والأمل، تلوينًا ليومى بلمساتها الرقيقة.

كم هو جميل أن يكون لك شخص فى حياتك يكون مرآتك فى الفرح والحزن، وهو يشاركك فى كل شىء. أنا وتالين، نشبه بعضنا البعض حتى فى الحب.

الشعور بها فى حياتى مثل الشعور بنبض قلبى، هى كمثابة النبض الذى لا يمكننى العيش بدونه.

أقسم بالله، لولا وجودها فى حياتى، كنت الآن فى عالم آخر، عالم بعيد عن الفرح، عالم خالٍ من السعادة. أصبح وجودها لدى بمثابة هواء أتنفسه، وضوء الشمس الذى أرغب فيه كل صباح. تالين أكثر من مجرد شريكة فى حياتى، هى السعادة بحد ذاتها ورسامة تلوين يومى بأفراحها.

إنه لأمر يبعث على الأمل حين يجد المرء الضوء بعد عمر من الظلام. منذ ذلك اليوم الموجع الذى فقدت فيه عائلتى وأنا فى سن البراءة، طعم السعادة كان أشبه بأسطورة الحكايات.

لكن منذ وصول تالين، بدا الأمر وكأن القصة بدأت تتحول، فألوان الحياة بدأت تعود تدريجياً.

تالين أصبحت فى حياتى بمثابة النسيج الذى يشكل وجودى، إنها تعكس صورة أمى وعائلتى وحبيبتى فى آن معاً. وبالمثل، أنا أصبحت لها كل شىء؛ العائلة التى افتقدتها، والسند الذى يشد من أزرها. وعدتها بأن أكون لها الأب الذى يحمى، والصديق الذى يؤنس، والحبيب الذى يشاركها كل تفصيلةٍ فى الحياة.

لقد تشابكت قصتنا بخيوط مصيرية عجيبة، فأصبحنا لبعضنا عالماً خاصاً، عالماً حيث يمكننا النمو والازدهار معاً، ونبني الأحلام على أنقاض الآلام. وتالين تعلمت أن ترى القوة في الضعف، والفرح في البسمة، والحياة في الوجود معاً.

صباح ذاك اليوم كان مُغايراً لكل ما عهدته. في الظاهر روتيني الأبدي، لكنني استشفيت من النسمات نبأ فرح يلوح في الأفق. لم تكن مُجرد عيون عادية تلك التي نظرت إليَّ، بل كانت عيون تالين تحمل في ثناياها كل قصائد الحب الأزلية.

وبكلمات خرجت من صدق قلبها وهى
تمد رؤاها نحو المستقبل، سألت "حبيبى
شاهين، ألم يحن موعد زواجنا؟"
ما أن دغدغت مسامعى تلك الكلمات حتى
شعرت برهافة الحياة تتجسد أمامى.
بادرتها بموافقتى السريعة، موجهاً لها
وعدى، "سنأتى بكل الأغراض التى
تحتاجينها والتى أحتاجها، كى نكون
مستعدين."
لامست إجابتى شغاف قلبها فبدت كأنها
النور الذى يلون السماء عند الفجر،
بابتسامة تزين وجهها والفرح يتراقص فى
عينيها. "هل نجعله فى هذا الأسبوع؟"
كانت تلك دعوتها.

"بكل تأكيد، سنجعل كل شىء يحدث في هذا الأسبوع."

وثمة فرحة صافية كانت تكبر وتتضخم داخلنا مع كل كلمة نتبادلها. فرحتها عند السماع بموافقتى كانت مطلقة، فقد قفزت كطفل متلهف فى يوم العيد، وضمتنى بعناق يلغى كل مسافات البعد. وكأنها بذلك العناق قالت لى بلا كلمات، "أنت موطنى وأنا عائلتك."

"إذاً سأجهز لكل شىء نريده"، أضافت وهى تشد من عزيمتها.

وأنا، بصدق المحب الأوّاب، أجبتها قائلاً "معاً" لترد بثبات "نعم، بالتأكيد معاً."

وها نحن ذا، نقفُ على أعتاب فصل جديد، نكتبه بأيدينا، نسجُ من نسمات الصباح حكاية عشق، تولد من القلب لتستقر فى زوايا الروح والوجود، معًا، دائماً وأبداً.

أنظر إليها، وهى تعكف على التحضيرات بنشاط يفوق طاقة النحل. على وجهها يرتسم فرح لا حدود له، ذاك الفرح الذى يستوطن قلبى ويستولى على كيانى، فيكون منبع سعادتى. ها هى ترتب، تنسق، وتبتكر، كأنها فنانة تصنع من لوحة حياتنا تحفة فنية لا مثيل لها.

أحاول أن أتدخل بين الحين والآخر، بعملية التجهيز والدهشة، لكن حماسها يجتاح المكان كأمواج بحر هادرة. لا يبقى متسع لى لأضع إضافتى، فهى تدير الأمور بكفاءة مذهلة، تذهلنى بقدرتها على التحكم فى كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة.

لكنى لا أجد فى ذلك ما يثير الإحباط، بل العكس، فخرى بها يتمدد داخل صدرى وأرى فى كل حركة تقوم بها الحياة تعزف ألحانها.

أتأملها من بعيد، وابتسم، مدركاً أن هذه اللحظات ستكون عزيزة على قلبى، محفورة فى ذاكرتى.

وحين تُطوى صفحة التحضيرات، سنقف معاً، تحت قبة الوجود المشترك، نشارك بعضنا العمر، نُتوج محبتنا بتلك الجهود المنسقة، لنحصد يوماً سعيداً يليق بعرس قصتنا.

فى لحظة، تكون هى الرؤية الوحيدة التى تملأ عينى، وأنا واقف هناك، أغوص فى تخيلات مستقبلنا الواعد. يقطع حبل أفكارى ظهورها كما لو كانت الشمس تبزغ من بين السحاب، لتستفسر بصوت حالم "ما رأيك بهذا الفستان؟" وهى تدور أمامى بكل رشاقة، وأناقة تعانق تفاصيلها.

جمالها خارق، مبهر بما لا يتصف ولا يقارن، فما إن ترتدى شيئًا حتى يصبح جميلًا بجمالها. فقلبى يكاد ينفطر من شدة النبضات المضاعفة التى تتناغم مع بريق عينيها وهالة جمالها.

أقترب منها، مسكوناً بإعجاب يتجاوز الحدود، وبيدى المرتجفة من التأثر، أمسك بخدها، وأُلقى على مسامعها همس الحقيقة "أتسألينى وأنتِ ملكة جمال؟"

أتابع بالهمس، "جمالك ليس له مثيل، وكل شيء تلبسينه يبدو عليكِ كخلق لم يكتمل إلا بكِ يا حبيبتى."

كانت تلك الكلمات مفتاحَ انسكاب الدموع، دموع الفرح والتأثر، التى شقت طريقها على صفحة وجهها البهى. وبلا تردد، تقدمت لتحتضننى بقدر حبّ لم أعهده من قبل، حب يعبر عن نفسه بلُغة الدموع والعناق، حب يؤسس لبداياتنا الجديدة بكل ما فيها من أمل، وشغف، ومستقبل مشترك.

الحلقة التاسعة:

"صناعة الذكرى"

تالين:

وكأن الأريكة كانت مركبى الصغير، معبراً نحو عالم الأحلام والتأملات. الكتاب فى يدى كان يفتح البوابات على مواضيع لا نهائية، أسبح فيها وأضع نفسى محل الشخصيات، أتناول من حكمتها وأنسج ملامح قصتى الخاصة. ويقطع تأملاتى صوت الباب وهو يُفتح برفق، شاهين يعود محملاً بكتب جديدة كانت تعانق ذراعه كغنائم يوم من أيام الفتح. وضعها برفق على الطاولة الجانبية وقصد إلىّ.

كنت هناك، غارقة فى قراءة الكتاب الذى أهدانى إياه، كل كلمة فيه كأنما كانت جزءاً منه، كل سطر كان يحكى عنه بطريقة لا توصف. رآنى، وفى عينيه ارتسمت ابتسامة تحمل فى طياتها كل معانى الحب والفخر. اقترب منى، جلس بجوارى، وجهه يطل من خلف كتفى وهو يتابع السطور التى كنت أقرأها. تلاقت أنظارنا، وبتلك النظرة المحملة بمشاعر فياضة، تسألنى "كيف وجدت الكتاب؟".

انسكبت كلماتى مثل العطر "أحب الكتاب كمحبة قلب من أهدانى إياه". وفى هذا العطاء، كان يكمن سحر الحياة التى نشاركها معاً.

قدمت له تلك الابتسامة الحانية، التى كانت تعبر عن أمتنانى وحبى اللامتناهى. وما كان من شاهين إلا أن بادلنى البسمة وما تعبر عنه من مودة. وفجأة، تسرب إلى الغرفة صوت موسيقى كلاسيكية من الراديو الموجود فى الزاوية، موسيقى تعزف لحن السماء، لحنٌ يماثل، ولا يضاهى فى روعته، إلا حظور شاهين نفسه.

وبدون كلام، نهضتُ من مكاني ومددتُ يدي نحوه، مدعوة إياهُ إلى الانضمام لرقصة صغيرة في وسط الغرفة. كانت الخطوات الأولى مترددة، لكن مع كل نبضة قلب وكل خطوة متوازنة مع أنغام الموسيقى، بدأ العالم من حولنا يتلاشى، ولم يعد هناك إلا نحن، نرقص على نغمات الحب والتفاؤل بالمستقبل الذي ننسجه معاً.

ومع ارتفاع وتيرة الموسيقى، بدا وكأن الزمن قد توقف ليشهد هذه اللحظة الساحرة بيننا. شاهين، بكل رقته وحضوره، يقود الرقصة برقة مفعمة بالحب.

تناغمت أنفاسُنا مع كل دقة من اللحن، وعيوننا متعلقة ببعضها البعض، تروى قصصاً عميقة، تقول أكثر مما تستطيع الكلمات نفسها نقله.

الغرفة التى كانت شاهدة على آلاف الذكريات، كانت الآن تحتضن رقصتنا، تتحول إلى صالة قصر، حيث كل زاوية وركن يحكى قصة عن حب يتجلى فى أبسط التفاصيل اليومية التى شاركناها معاً. من رف الكتب الذى على الحائط، إلى القطع الفنية التى جمعناها فى رحلاتنا المشتركة، والصور التى تزين بَرَواز الحياة التى نبنيها.

تغلغلت الموسيقى بكل شريان وخلية فى أجسادنا وهى تحتضن روح الاحتفاء بكل لحظة سُمح لنا بتجربتها معاً. فى ذلك العناق الراقص، شهدت الكتب المحيطة بنا كيف أن قصتين منفصلتين قد تم نسجهما فى حكاية واحدة مشتركة، حكاية عمر بدأناها سوية.

وبينما نستمر فى الرقص، مازحت شاهين بكلمات مغمورة بالمودة "لك الفضل فى كل مشهد يُكتب فى قصتنا، فأنت الكاتب والراوى والبطل فى آن واحد." وكان كل لمسة، كل نظرة من عينيه، تؤكد لى أن هوية هذا البطل لا يُمكن أن تُستبدل، أو أن يحل محلها أى بديل.

وحين خفت النغمات وتَساقطَت المقطوعة إلى النهاية، قفز فى نفس شاهين لحظة شقاوة يتقنها كما يتقن فن الكلام. قال "ماذا عن قصة جديدة، لكن هذه المرة فى مغامرة مختلفة؟" غمزتُ له بعينٍ ملؤها التحدى والفضول وأجبت "بقلبٍ مفتوح، وروحٍ مشتاقة للحظات جديدة من مشاركتك كل شىء."

فى ذلك، أحسست، بأن كل خطوة مشيناها سوية منذ البداية قد كانت مجرد بداية لما لا نهاية له من جمال. وبيدٍ متشابكة وقلب متصل، بدأنا نخطط لتلك المغامرة القادمة، مغامرة تُضاف لسلسلة المغامرات التى علمتنا أن الحياة مع شاهين، وبكل معنى الكلمة، هى الهدية التى لا تُقدر بثمن.

شاهين:

وها هى تالين تقف أمامى، أشعة الحب تتسرب من نظراتها الحانية، وبكلمات تحمل نسمة العطر، توجه إلىّ السؤال والسعادة تتراقص فى صوتها، "حبيبى، ما شعورك مع اقتراب عرسنا؟" فى هذه اللحظة، كانت كل الحروف والعبارات مجرد ركام أمام ما كنت أشعر به حقاً، لكنى حاولت أن أنسج منها إجابة تليق بحجم المشاعر التى تغمرنى.

اقتربت منها، وبابتسامة خفية تلوح فى زاوية فمى وقلت، "كشعور حبيبة قلبى." كنت أعرف أن الكلمات لم ولن توفِ، لكن أردت أن أنعكس مرآة لعواطفها، أن أظهر لها أن كل ما تفيض به من مشاعر متبادل بالمثل. وكرد منها على مراوحتى اللطيفة، قالت بروحها المرحة "إذًا، شعور جميل جدًا."

لم أتمكن من حبس ضحكتى، وضحكت بفرح صادق هادئ. ما كانت لهذه اللحظة أن تكتمل دون تلك الخفة التى تضفيها دائماً على حياتنا.

وما بين الضحكات والنظرات التى تتبادلها الأرواح قبل العيون، سألتها "وما هو شعور حبيبة قلبى؟" وكان ردها يشبه سحر مساؤنا، "كشعور حبيب قلبى."

لحظتها، أيقنت أن الحب ليس فقط فى الأقوال الرومانسية والتبادلات العاطفية، بل أيضاً فى المرح وخفة الظل التى نشاركها. وتلك الضحكة التى ترددت فى أرجاء الغرفة كانت قرع طبول يُعلن عن احتفال قلبين بالحب المتبادل.

وبعدما خُتمت ضحكتنا تلك بالهدوء، نظرت إلىّ تالين بعينين تلمعان بكل العواطف المتدفقة وقالت "أحبك، والله أحبك." وأنا، بكل ما أملك من حب وعرفان وأعماق لم تزل تكتشف فى بحور مشاعرى، أجبتها "وأنا، والله والعالمين، أحبك أكثر."

قد صادفتنى تالين بفكرة طيبة، أخذت قائلة بلهفة مليئة بالحنين المبكر للمستقبل، "هيا أعطنى هاتفك، لنلتقط بعض الصور كذكرى لنا قبل العرس، لنريها لأطفالنا مستقبلاً." وفى تلك الجملة البسيطة، أُضيف مستقبلًا كاملاً إلى الحاضر الذى نعيشه.

أعجبتنى هذه الفكرة، وهكذا بدأنا معًا رحلة من التصوير فى كل زاوية وكان كل مكان لنا ذكرى به. كل صورة جمعتنا كانت تعكس لحظة من حياتنا، تحمل بطياتها قصة من قصصنا المشتركة.

وبعد أن انتهينا من هذا الرحلة الصغيرة فى الحاضر والمستقبل، أمسكت بيدها فى يدى، وفى لحظة صمت مليئة بالصفاء والجدية، بحثتُ فى عيونها متسائلاً: "سنبقى معًا إلى الأبد اليس كذلك؟" رأيت فى عينيها انعكاس الأمل والحب الخالدين، وكانت إجابتها بسيطة ومؤكدة، "بالتأكيد حبيبى."

بعد الردّ الذى أضاء أحلامى ورُسخت أواصر الألفة، انحنيت نحوها فى قُبلة حالمة، وضممت هذه الروح الحنونة الًى قلبى. يجتمع فى عينيها بحر من الحب والطمأنينة، عينان تشعّان وقائعا ماضية ومستقبلية.

الآن، وبعد يوم واحد فقط، سنكون معًا رسميًا، نشترك فى كل لحظة صغيرة وكبيرة، فى حلم مشترك يزداد كبرًا. تلك اللحظات الأخيرة كانت بمثابة العد التنازلى للحظة فرحنا، لحظة نقطف فيها ثمرة مشاعرنا التى صبرنا على جنيها طويًا.

الحلقة العاشرة والأخيرة:

"قد لا يكون ملموس"

في صباح ذاك اليوم الذي لطالما انتظرته، استيقظت على نسائم الفجر الباردة تداعب وجنتيّ، وقلبي يخفق بإيقاع موعود حلمنا به معًا. بخطوات حالمة ممزوجة بشيء من الرهبة والأمل، تقدمت نحو تالين، تلك الروح التي ستوقع معي عهد عمر جديد اليوم. أمسكت بيدها الناعمة بكل الحب الذي يكنه قلبي، وبدأت أشاركها أنفاسي وأبث في أذنها عبارات العشق والاخلاص.

"حبيبتى، أنتِ اليوم ستصبحين جزءًا منى بكل ما تحمله الكلمة من معنى، بكل تفاصيلها الصغيرة والعظيمة. وقبل أن نخطو خطوتنا تلك نحو الأفق الجديد، أود أن أهمس لكِ بمكنونات صدرى." نظرت لى تالين بعيونٍ ملؤها الاطمئنان والحب، وهمست بهدوء وصدق، "أسمعك يا حبيبى، كلّنى آذان صاغية لقلبك."

عميقًا فى داخلى، شعرت بأن كل ما فى الحياة قد تهيأ لهذه اللحظة، فأكملت بصوتٍ يتخلله العاطفة، "إنّكِ يا تالين، الشىء الأغلى الذى أهدتنى إياه تلك الحياة.

أنتِ سكنى وملاذى، أنتِ حبى وروحى التى تسكن بين جنباتى، أنتِ من تمثلين لى العائلة والانتماء، وفيكِ وجدت الأمومة والدفء الذى طالما اشتقت إليه."

مسَكَتْ بيدى بقوة، واحتضنتنى بكل ما تملك من محبة وحنان، فانهارت دموعى بتلقائية مشتركة، معانقة لدموعها، وفى ذلك العناق المملوء بكل تلك المشاعر الجياشة، همست بأمنية قلبها،

"أحبك يا شاهين أحبك جدًا."

ارتديت بدلتى بعناية وحرص، وهى ارتدت فستانها بجمال يضاهى الورود فى حدائق البهجة، وبقلوب ملؤها السرور والترقب، هبطنا الدرجات، جاهزين لنركب السيارة التى ستقلنا إلى كنف الحلم.

لكن عندما كنت على وشك أن افتح لها باب السيارة، لاحظت النظرة الجامدة فى عينى تالين المُحملقة نحو الأفق البعيد، نظرة متسعة كأنها ترصد لحظة قدرية.

"ما الذى يحدث، يا تالين؟ هل من شىء يزعجك؟" سألتها والقلق يخنق صوتى. لكن الرد لم يكن إلا صرخات ملتاعة ودموع تسيل على وجهها البرىء، "إنها أمى! أمى هناك!" تفحصت المكان، لكن لا يوجد أحد، فلم أفهم لمَ تلك الفزعة. حاولت احتضانها لتهدئتها، قائلًا، "إلى أين تذهبين، يا تالين؟ هل من أحد هناك حقًا؟" ومعها هى تتخبط بين ذراعى، حائرة، كأنها تحاول الوصول إلى سراب.

فى رمشة عين، هرعت إلى الشارع، وكنت خلفها بخطوة واحدة، أمسك بها فى اللحظة الأخيرة، أحيطها بجسدى، وأحميها من ذلك الخطر القادم. ومع الضجيج والفرامل الممزوجة بصرخات، كنت أنا من استقبل تلك الصدمة، وبعدها اختفت كل الأصوات والألوان، وغاب الوعى عن عينى، تاركًا كل شىء ورائى فى ظلمة لا نهاية لها.

انفتحت عيناى على وقع المونيتورات التى تصدأ الحياة عبر أنغامها المعدنية، أصوات موتورية صاخبة توقظنى من غفوة لا أذكر بدايتها.

"تالين.. تالين.." كانت الكلمات تتسرب من بين شفاهى دون وعى، صدى الاسم يتردد فى رأسى المضطرب ويزيد من رعشة قلبى. أتنشق أكسجينى بصعوبة، والصراع يكبر بداخلى، فأنا لا أعثر عليها.

مضى إلى جانب سريرى شخص، طيف ممزّق. عيناى، التى لم تتأقلم بعد مع النور القاسى، راحتا تفتشان فى وجه لم يكتمل وضوحه بعد، تتبعته ببصرى المهزوز وأطلقت الاستغاثة، "أين هى تالين؟ أخبرنى!"

شعرت بيد تسكن على جبينى، وبقول منهمر بالهمسات المهدئة. "اهدأ، اهدأ..." وجدت نفسى أغرق فى بحور من الهلع.

"من أنت؟" كلماتى تذوى فى عينيه، نظراتى تبحث عن شىء مألوف.

"أنا عمك، يا شاهين."

وكأن قطعاً من الذاكرة بدأت تتراص فى عقلى، "عمى! متى أتيت؟ لماذا لم تُخبرنى بقدومك؟"

ومع كلماته، زادت حيرتى، "هل نسيت يا شاهين؟ تحدثنا مؤخرًا وأخبرتك بأننى قادم."

لكن الاستغراب عصف بى. لم أتذكر ذلك الحديث، وآلت صرخاتى تالين تخفق فى أرجاء الغرفة كصدى لصراعِ نفس محتضرة.

حاولوا تهدئتى بجهد جهيد، محاولات يائسة لترسيخ قدمى فى الواقع، لكن ذرات القوة تسربت داخلى، دفعت بجسدى المنهك خارج الفراش. واقفًا بين وميض الأضواء، خطوت خطوات متهالكة نحو باب الغرفة، وتقدمت بكل ما أملك من إصرار، فى الوقت الذى يصيح به عمى،

"توقف، يا شاهين!"

وقفت بلا مبرر يشفى حزنى، والشريط يعود، "اليوم يوم زفافى!" وبدأت الدموع تحرق وجنتاى، وأنا أنهار أمامه، "هل أصابها مكروه؟ يا عمّى، أخبرنى، هل ضربتها السيارة؟" لكن، عندما حاول أن يسيطر علىّ، انفلتت قواى وأنا أندفع خارجًا. اقتادتنى قدماى إلى سيارة أجرة وأمرت السائق بالإسراع إلى عمارتى.

عند الوصول، الفوضى فى رأسى تعكر صفو الوجدان. بحثت فى جيوبى، ولكن المفتاح لم يكن هناك. أصابعى تطرق على الباب بلا توقف، "تالين! تالين! أين أنتِ؟" اليأس يطبق على صدرى وأنا أناديها بصوت مبحوح.

تجمهر الجيران، ينظرون بدهشة وارتباك،
وأحدهم يقترب، "ما بك يا شاهين؟"
كنت عرضة للصراع الداخلي، "إنه منزل تالين،
هل رأيتموها؟ هل تعلمون شيئًا؟"
كان الجواب كبرق يصفع الروح، "هذا المنزل
خالٍ منذ وقت طويل."
توقفت الأنفاس في صدري، وسُدّت الأفكار في
عقلي، "لا، مستحيل! مستحيل!"
احتضار الأمل دفعني إلى شقتي، بحثي كان عن
ذكرياتي مع تالين، عن صحن الحلوى الخالي
الذي لم أجده. سقطت أرضًا، وعبارات الصدمة
تفيض من كل جسدي. "أين أنتِ، يا تالين؟
لماذا يُعذبُني القدر هكذا؟ فقدت عائلتي و الآن
تالين!."

ولمدة عصيبة، تحولت البحث إلى نواح
واستجداء. دفع المسؤول الباب مفتوحًا
ودخلت لأجد العتمة والغبار يحتلان
المكان. سقطت مجددًا، والدموع تسكب
نهرًا، "أين أنتِ؟"

وهناك، فى زاوية منسية، وجدت كتابى،
الذى قبل لحظات كان قاسمى العظيم مع
تالين. تمتم صاحب المنزل بشىء حوّل
الربكة إلى ذهول، "قد تكون أنت وضعته
هنا فالباب غير مقفل."

"كيف ذلك!! قد أعطيته لتالين صدقنى!"
صرخت من فؤادى.

مسكنى من الكتف وقال برفق يغلفه ألم، "تتخيل يا شاهين، لا وجود لأى شخص يُدعى تالين."

سقطت، قلبى يُمزق، فى الوقت الذى التفت فيه للجيران وأنا أصرخ، "لكننا التقطنا صورًا! أنظروا! أنتظروا!"

تعثرت أصابعى بالهاتف أبحث عن إثبات وجودنا، لكن كل صورة كانت تُظهرنى وحدى.

فقدت الهاتف من بين يدى، ورأسى يسند الحائط. دخلت شقتى وأغلقت الباب، وأنا أفقد اليقين فى كل ما تذكره ذاكرتى، لتسقط الورقة من على الحائط، وسقطت معها روحى..

"ليس كل شىء ملموس قد يكون ملموس."

توجهت خارجًا، الأزقة خاوية وصمت المبنى يعلو فوق الضجيج المعتاد. وأنا أصعد الى السطح وحيدًا، عيناى ترتفعان نحو السماء. يمنحنى ليلها غموضًا يتخلل الروح؛ الحياة... هى لعبة الفرص، تمنح بسخاء وتسلب بقسوة. أحاور السماء، قائلا: يارب، إن كانت ابتلاءاتى اختبارات، فإنى أقر بانكسارى، لم تعد النفس تحتمل. احبابى غابوا، وعندما تعلقت بتالين الحياة مجددًا اخذتها منى، و انتُزعت من يدى. أناجيك، لماذا الألم يتبع كل الأمل؟ أهمس بهدوء، أتطلع إلى الأسفل، أُغمض عينى،

وفى دهاليز روح البطل، تتعانق الحكمة مع ألم الخبرة فتولد منها عبرة تتلوها الأجيال. "الحياة تمنحك، دون أن تعد بالبقاء. فلا تعلق كيانك بها، كن أصيلاً كما أنت، فإن اختبارات الحياة لا تكاد تنتهي. وبعد كل ما مررت به، بات جليًا لمن حولى لما أقدمت عليه. أجل، قد يظن البعض أن الهروب هو المفر الوحيد، نعم إن طريقنا يمتد ويتعرج بين الأمل والأسى."

ها هى الرسالة التى تجسد صراع البطل مع دروب القدر، مدوية فى أرجاء الرواية.

سقطت كسقوط اوراق الخريف لا حول ولا قوة لى.

"فليس كل شيء ملموس قد يكون ملموس".

النهايـة.